كلماته سكنت الآذان وردّدتها الألحان[1]

العميد الياس فرحات

كان الفتى يحرّك منذ صغره إبرة المذياع، ينتقل من محطة إذاعية إلى أخرى ولا يلبث أن يعود إلى الإذاعة اللبنانية ومن ثم إذاعة لبنان. كانت إذاعة لبنان الصوت الوطني الوحيد الذي يبث الأنغام والألحان التي يرددها الأهل والجيران، ويسمعونها في الأعراس والمناسبات. كان الفتى يهزأ من أصوات الكورال التي ترافق المطرب، ولا يزال يحتفظ بأسماء قديمة مثل: زكية حمدان، وفؤاد زيدان، وصابر الصفح، إضافة إلى الدائم وديع الصافي، وصباح، وطبعاً فيروز والرحابنة. كان يحفظ بعض الأغاني، وكان يلفته قبل تقديم الأغنية أنها من كلمات فلان أو فلان.

وكانت أغاني وديع وصباح والكثيرين من نظم عبد الجليل وهبي. بقي الإسم راسخاً في ذهن الفتى لأنه كان يتكرر عند تقديم معظم الأغاني؛ لم يعرف مَن هو عبد الجليل وهبي؟ سوى أنه قابع في ذاكرة الماضي الجميل أيام كانت الأغنية أغنية، وكان معدّوا الأغاني يحترمون الذوق العام، والتراث الشعبي.

---

(١) مجلة الجيش، العدد رقم (٢١٧)، السنة ١٩، تموز ٢٠٠٣م، ص٥٢.

كانت أغنية «جينا وجينا وجينا، جبنا العروس وجينا» تسمع في حفلات الزفاف في الصيف في القرية والجوار، وعلم الفتى أنها تنشد في كل الأعراس اللبنانية وظن أنها تراث كالدلعونة..

وطالما أحب أغنية «بالساحة التقينا بالساحة، عليها جوز عيون شو دباحة»؛ وبقي في ذهن الفتى الكثير من ذوق الماضي الذي كان كافياً لينفره من الأغاني الكيميائية الجديدة التي سرعان ما تسقط من الذاكرة والتداول. علم قيمة الكلمة وأهميتها في استدرار اللحن، وأدرك أخيراً وبعد طويل من الزمن أهمية شعراء الأغنية، ومنهم عبد الجليل وهبي الذي بقي في الذاكرة محاطاً بغموض ناتج عن بعض جهل، وبعض عدم اكتراث، وكثير من سيطرة الروتين وهيمنة المتطلبات اليومية.

ذات يوم سمع بعبد الجليل وهبي، وكان قد ظن أنه رحل، إلا أنه تأكد أنه ما زال حياً يرزق، فهمّ على وجه السرعة لمقابلته علّه يستعيد في ذلك جزءاً جميلاً من الحياة كاد يضيع من الزمن. سارع إلى تحضير الموعد مع صاحبيه اللذين ما زالا يحتفظان، خلافاً لما هو شائع، بجميل الماضي، ويحاولان جاهدين إسباغه على أدب الحاضر بمشقة واضحة وبنجاح قليل قليل.

باهتمام غريب ونادر في الثقافة السائدة، توجه الثلاثة إلى منزل عبد الجليل وهبي؛ ها هو الشاعر يجلس في ركن داره. خاب الأمل من استعادة الماضي، فعبد الجليل في مرحلة الغروب، وتلك الشمس التي سطعت طويلاً رآها صاحبنا وهي تغرب، ورأى أن معه يغرب الأمل في استعادة الجمال القديم. حاور عبد الجليل من دون نتيجة. طرح عليه الأسئلة، لم يبد عبد الجليل الإهتمام المنتظر، وكان الفتى يسمع الأجوبة من صاحبيه إنقاذاً للموقف، مما أثار دهشة ابنة عبد الجليل القادمة بعد رحلة عمر طويلة من الشمال الأوروبي، وحفيدين ينظران إلى كتاب توثيق أصفر اللون لعائلة

توزّعت في كل الأصقاع. وإذا بعبد الجليل جامعة عربية، بل شرق أوسطية بلغة التطبيع، من حاروف في جبل عامل إلى بيروت ووادي أبو جميل، إلى نازحي فلسطين، إلى غرانب المغرب. أولاده وأحفاده يتوزّعون، وهو لا يزال يردد بعض الشعر الجميل. الإهمال الذي ساد انعكس عليه. تنظر إلى الجدار فترى شهادات تقدير فرنسية لشاعر شعبي لبناني، فتسأل نفسك: أين هي تقديرات الوطن في حمأة كراكوزات التكريم المتكررة؟

ويجلس عبد الجليل سلطاناً شارداً على الكنبة والكل في حيرة، في الغروب تعطيك الشمس أجمل المناظر، وغروب عبد الجليل حرّك الخيال وأشعله وأطلقه باتجاه الماضي، لكنه لم يعط الحرارة المطلوبة ولا السطوع المرجو.

بين ابنة ذات وفاء نادر، وحفيدين تنبض على نظرتيهما مشاعر محبة من دون آلية تنفيذ أو إظهار، يستمر عبد الجليل على كنبته، يعيش غروبه، ولست أدري إن كان قد علم مَن أتى لزيارته بهذه اللهفة وهذا الإهتمام، ولماذا، وعلام يبحث هؤلاء الزائرون؟ ما أصعب الزيارة لحظة الغروب!